

في ديار الاسماعيليه

محمد سعيد الطريحي

الموسم

طرق سمعي لفظ (الاسماعيليه) منذ صباي، إذ كنت أقضي أغلب الوقت في جامع الكوفة التاريخي الشهير، وكنت أشاهد فيه من حين لآخر مجاميع من زوار العتبات المقدسة من أبناء البهرة الاسماعيليه الذين كانوا يلفتون الأنظار بملابسهم البيضاء وعمائمهم وطواقبهم المطرزة بخيوط الذهب، ويمشي إلى جانبهم النسوة البهريات مشية السكينة والوقار متبرقات بحجابهن المتميز، بارزات الوجوه السمراء وسط ثياب حريرة وأخرى قطنية من أنفُس ما تلبسه المرأة الهندية من الألبسة الزاهية الألوان والمتقنة الصنع والعالية الجودة، فلا هو باللباس الشديد السواد الذي تتزيه الهندوسية وبعض المسلمات فيكشف عند ذلك البطن والمثن وبعض الصدر، ولا هو بالسواد الشديد الذي تتزيه المسلمة الهندية وتخفي وراءه قيود المجتمع وتخلفه وظلمه، وكل ذلك مما كان يثير لدي الفضول في التعرف على هؤلاء القوم، فأتساءل مع نفسي، من هؤلاء؟ ولماذا هم مختلفون عنا، وكان مما يزيدني حيرة في ذلك أنهم متكتمون لا يتصلون بأحد البتة، بل كنت أراهم يعرفون المقامات، وجغرافية الأمكنة المقدسة أكثر مما يعرفها بعض مواطنينا، وكانوا ينظمون بعثة أمورهم في هذه الأسفار التي تستغرق منهم مالا جزيلا ووقتاً ثميناً يقطعون فيه آلاف الأميال حتى يصلون إلى بلادنا، وهم حين يصلون ففي الوقت الذي يريدونه بحسب التقويم الشرعي الذي يلتزمون بما يرد فيه وحين يقيمون ففي (فيضي محل) أو (خان الهندود) كما نسميه، أو قل الفنادق الوتيرة التي قد لا يوجد مثلها يومذاك في مدن العتبات المقدسة أذ يجدون فيها كل ما يحتاجه المسافر السائح من دواعي الراحة والنم والنام والغسل والطبخ وما إلى ذلك وعلى وجه من الانضباط قل نظيره.

كانت هذه الصورة الأولى العالقة في ذهني حتى إذا ألفت بي عصا الترحال في الهند وبعد نحو عقد من السنين وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام سلطان البهرة الداعي الفاطمي المطلق سيدنا محمد برهان الدين في مكتبته الشهير ومقر عمله في (بدري محل) المعروف في مومباي Mombay وهو بناء ضخم بناه الداعي عبد الله بدر الدين المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ فأصبح بمثابة مقر الحكومة البهريه وكل ما يتعلق بشؤون الطائفة أو قل هو فايتكان البهرة في جمهورية الهند واليه يرجع كل بهري داوودي في شؤونه الروحية في أي مكان وجد في هذا العالم.

وكان ذلك اللقاء بالسلطان يوم السبت الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٩٨١، وجرى على خاطري يومها أبيات أنشدتها امامه، فيها:

زهت الأيام في (بدري محل)
ذاك (برهان) العلا والدين اذ
والتقينا حضرة الداعي الأجل
سطعت أنواره تحكي زحل

فقام محيياً أيّاي واجلسني بجانبه وبدأ كلام سيدنا بالمجاملة والترحيب وذكريات عن زيارته للكوفة وبقية المقدسات العراقية، وكان المجلس يضح بمئات البهرة الذين يقدمون بين يدي السلطان وهم يسجدون له احتراماً وتوقيراً وما أن يعتدلوا في قعدتهم حتى يسلموا واضعي راحات اكفهم إلى بعضها البعض ثم يرجعون إلى الوراء أدراجاً وما أن ينصرفوا حتى تتقدم طائفة أخرى من مريدي السلطان فيقتربون باحترام شديد إليه ثم يسجدون له سجدة التوقير ويقومون وهكذا كانت الوفود تترى لتحية السلطان وبعدها يقوم السلطان فيقف بقامته المديدة وعمامته البيضاء المكورة التي ترتفع على رأسه فتزيده طولاً ومهابة، ويمشي خطوات فينحني شينا قليلاً أمام طاولة من الخشب عليها عدد من الزجاجات المختلفة الأحجام وهي مليئة بالماء، فينفخ السلطان عليها بنفسه جيئة وزهاباً، ثم يأتي إلى محله الأول فيجلس، وينطلق القوم الذين وضعوا زجاجات الماء ليأخذ كل واحد زجاجته وقد تعطرت بأنفاس السلطان فقد كانوا يتبركون بذلك، ثم يلتفت إلى فيحيني مرة أخرى ويسألني فيما إذا كنت محتاجاً لشيء فأشكره ولما بدا لي القيام والتوديع قمت وقام السلطان بنفسه وحينذاك جاءنا ونحن في تلك الحالة الشيخ محمد شاكراً^(١)، والشيخ حيدر علي^(٢)، وهما من خيرة مريدي السلطان ووضعوا بين يديه شالا كشميرياً أبيضاً دقيق الصنع -وضعه سموه- على كتفي، ثم تناول منهما صرة تحتوي على أنفاس الألبسة البهرية الحريرية، فقدمها لي -سموه- بنفسه، مع ظرف أبيض يحتوي على مال فاعتذرت من قبوله وتقبلت الصرة الفاطمية منه هدية أنس وسرور ومحبة.

ومن مقر عمل السلطان نزلت إلى الطابق الأول حيث مقر مكاتب الدعوة الهادية المستجيبة

(١) صديقي العلامة الشيخ محمد شاكراً ولد سنة ١٩٣٥ في كربلاء (العراق) وكان والده الشيخ يحيى العماد قد هاجر إليها من الهند، ويعود في أصوله الأولى إلى اليمن إذ يتصل نسبه بسيدنا اديس عماد الدين (أحد دعاة الأسمايلية المشهورين في اليمن) وكان يحيى العماد مندوباً لسلطان البهرة في كربلاء. أكمل محمد شاكراً دراسة الدكتوراه في جامعة سوس (لندن) وكان موضوع رسالته «سيرة الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي (زوج الملكة اروى) وتقع في مجلدين وكانت بإشراف البروفسور Hawthing وانجب من الأولاد: نجم الدين، وذهبية، ومفضل.

والشيخ مفضل المولود في بومباي سنة ١٩٧١ أكمل الماجستير في جامعة اكسفورد وهو اليوم من الأعضاء النشيطين في الجامعة السيضية بسورت، وقد سررت بمعرفته مجدداً، في زيارتي الأخيرة للجامعة سنة ٢٠٠٧.

ما مات من قد خلف المفضل الشاكراً النذب الأديب الفطحل

انتقل الشيخ محمد شاكراً إلى رحمته تعالى في ٨ من ذي الحجة سنة ١٤٢٥هـ

(٢) الشيخ حيدر علي بن عبد الحسين، وكان والده تاجراً من أصل عربي يعني صميم، ولد حيدر علي في اندر (بولاية مديا برديش) سنة ١٩٣٣ ودرس في المدرسة الوجيهية ثم في بومباي وله كتاب نفيس بعنوان: دراسة مقارنة في الشعر الأوربي والعربي (دراسة في أدب الثورة والتحرر) تفرغ لخدمة السلطان وعائلته وهو منذ عقود يواصل عمله في «بدري محل» بكل متابعة ونشاط حفظه الله.

وقد اصطحبني المرحوم محمد شاكِر إلى مكتبه وهو مكتب صغير لكنه مليء بالكتب واستخرج لي كتاب (مجمع البحرين) بطبعته الحجرية القديمة، وقال لي ماذا يقربك مؤلف هذا الكتاب؟ فقلت له أنه من أجدادي، فقال: نحن نعتبره من مصادرها المعتبرة، وبقينا معاً حتى المساء نتبادل فيه الحديث عن كثيرة من شؤون الدعوة الفاطمية كنت أنا الذي أطرح الأسئلة ومضيفي يجيب عليها بكل حنكة وتؤده، وكانت هذه الجلسة الأولى التي فتحت علي الرغبة المتواصلة باستكشاف كنوز الدعوة والاهتمام بكل ماله صلة بالاسماعيلية.

وكنت أقوم بالتدريس في (محفل خراسان) و (بيمارستان امين) واشتغل في ذلك طيلة الوقت ولكن ما أن يتسع لي الوقت والفراغ حتى التحق ببدري محل، أو روضه طاهرة لأجد أصدقائي هناك وأحادثهم، وأجدد العهد بهم، ولم يكن ذلك بعيداً علي فالمحلة التي أسكن فيها تتوسط المكانين المذكورين وقد يستغرق الذهاب إليها مشياً قرابة نصف ساعة.

وبعد شهور من اللقاء بسلطان البهرة، التقيت سمو الأمير كريم آغا خان الذي حضر إلى مومباي بدعوة من أتباعه ليحيون بوجوده العيد الفضي لتولي سموه أمور الدعوة الاسماعيلية النزارية، وقد تهيء اللقاء به في المركز الاسماعيلي القريب من الدار التي اسكنها في المنطقة التاسعة من مومباي والمركز المذكور يشرف على شارع بالاكلي، وقد تحول اسم الشارع اليوم إلى شارع أبي الفضل العباس عليه السلام، وهو الشارع الذي يسكنه خليط من البشر من مختلف الديانات والمذاهب في الهند، فزي بداياته أكثرية شيعية اثنا عشرية تتحلق حول مسجد الخوجة، وبعد مئة متر منه المركز الاسماعيلي الزاهي بمأذنته الشامخة ذات الساعة الدقاقة، ثم على بعد خطوات من محلة اليهود وكنيسهم العتيق، فالمعبد الجيني، والمعبد الهندوسي، والجماعات الزرادشتية، والسريانية وغيرها، وهكذا كنا نصبح ونمشي كل يوم بين جمهرة مختلفة من الاعتقادات والأفكار والعادات والأذواق، وكان أصحابي هناك من كل هؤلاء وكان الاحترام عاماً والصدقات العميقة تتشكل بمعزل عن الاعتقاد ضمن العصبة التي عشت بينهم فآلتهم وألفوني، وصدق مولانا الإمام الباقر عليه السلام الذي يقول: «بالتعايش صلاح الناس» وبالتعايش يسرت لي إقامتي في مومباي الاطلاع والاحتكاك بكافة الطوائف الدينية وتعلمت احترام الأديان جميعها.

وبالعودة إلى الاسماعيلية أقول أن منهم من انشق على الفرعين الرئيسيين البهرة الداوودية والفرقة النزارية، ومنهم الفرقة العلية الاسماعيلية الذين افترقوا على عهد سيدنا فيرخان شجاع الدين المتوفى سنة ١٠٦٥ الداعي ٣٣ على حساب (الداوودية) ولهم ممثلية صغيرة في مدينة (بارودا) وقد تطلق عليهم تسمية (الفرقة الهجومية) و (الناكوشية) أي الذين يحرمون أكل اللحوم، ولا أدري أين تقطعت بهم السبل ومن المفارقين للجماعة الداودية العلامة المجذوع صاحب الفهرست الخاص بمؤلفات الاسماعيليين، قال لي الشيخ حيدر علي: أنه خرج على سيدنا هبة الله المؤيد في الدين المتوفى سنة ١١٩٣.

وينسب المتعصبون إليهم فرقة خلقها امام الدين الحسيني الاسماعيلي الذي قدم كجرات ودعى الهندوس إلى مذهبه، وأجاز لهم أن يلبسوا شعارهم ويعيشوا على مراسمهم ويعتقدوا بأن الله واحد لاشريك له وأن محمداً رسوله، وأن علياً مظهر الألوهية برز فيه «كرشنا - وهو أحد آلهة الهندوس» وأن الامام نائبه وكتب لهم كتاباً أسمة «ست ديني» وبنى لهم معابد سماها «علي جي كامندر» أي معبد علي. وقد أوردت هذه المعلومات التي تداولها أعداء الاسماعيلية ورموهم بها واختلقوها وألصقوها بهم عداوة وحقدًا وماهي إلا من وحي الخيال لأن الاسماعيلية بكل تفرعاتها معروفة وعقائدها مكشوفة، ومن الأباطيل التي تُرمى بها هذه الفرقة قول من قال أن اسماعيلية الهند لم يكونوا مسلمين قط، بل انهم هنادكة راجبوتانيين اعتنقوا الاسلام ظاهراً، وغالَى بعض المتطرفين فقال أنهم من يهود العراق الذين أسلموا ولم يحسن اسلامهم.

على أن أشهر التفرعات الأخرى من الاسماعيلية اليوم هم الفرقة السليمانية وهي على طرفي نقيض مع الفرقة الداوودية (البهرة) وهم وأن وجدوا في الهند لكن كثرتهم الكاثرة في اليمن والحجاز حيث يعيش مئات الآلاف منهم اليوم في نجران وفي المناطق الجبلية في جنوب غرب (السعودية) التي كانت تابعة لليمن في مطلع القرن العشرين، وقد يطلق عليهم المكارمة. وقد افترق السليمانية عن الداوودية خلال القرن الحادي عشر الهجري فبعد وفاة الداعي سيدنا داوود بن فطربشاه برهان الدين سنة ١٠٢١ اتبع الداوودية سيدنا الشيخ آدم صفي الدين المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ بينما قالت الفرقة التي سميت باسم السليمانية بأن الدعوة المطلقة انتقلت إلى سيدنا سليمان بن الحسن وكان أحد كبار أعلام الاسماعيلية اليمنيين ومن عائلة عريقة في الدعوة وقد انتقل سليمان إلى الهند داعياً إلى نفسه، فتبعه جماعة (السليمانية) بينما استمرت (الداوودية) مع الداعي آدم صفي الدين، ونشأ بين الجماعتين خلاف شديد والمكارمة السليمانية اليوم فرقة مستقلة وداعيتها المطلق الحالي هو الإمام حسين اسماعيل المكرمي اليامي. وهذا الجماعة تلاقي اليوم اضطهاداً وظلماً من قبل السلطات في السعودية بسبب التطرف الوهابي الضارب اطنابه في بلادهم إذ يعتبرهم شيوخ التعصب الوهابي من الكفرة والملاحدة ويحرمون التعامل معهم ويحرمونهم من كثير من حقوقهم الإنسانية.

فلسفة العقيدة الاسماعيلية

والاسماعيلية، كعقيدة، تتضمن فلسفة ماورائية، وفلسفة كونية، وفلسفة روحانية تعالج نشأة الإنسان وتطورة. في فلسفتها الماورائية تضع الاسماعيلية أهمية كبيرة على التوحيد سالكة في ذلك سبيل الاعتدال في قضية التعطيل والتشبيه، والتعطيل، في علم الكلام، اعتبار الله وحدة تجريدية لا يستطيع الإنسان إدراك صفاته وخصائصه، والتشبيه محاولة فهم ذات الله عبر مقارنة اوصافه وخصائصه باوصاف البشر وخصائصهم.

من هذه الناحية إذاً تلتقي الاسماعيلية مع النظرة الاسلامية الصحيحة. أن أصل الأشياء، بحسب العقيدة الاسماعيلية، ليس «الوجود المجرد» بل «الحقيقة» التي

تتعالى عنه والتي نسميها «المبدع» وعمله الأول الإبداع، وخلق الأشياء، تبدأ الفلسفة الإسلامية بالوجود أو الإبداع وتعني بطبيعة الله أو منشئ الكون ومصدر الوجود. أما في الفلسفة الصوفية الماورائية فإن «الذات» مطلقة لا متناهية، أنها فوق كل الحدود بما في ذلك «الوجود» الذي هو مبدأ الخلق، فالاسماعيلية من هذه الناحية تلتقي مع الصوفية في ماورائياتها، ومع الفلسفة الماورائية الشرقية بصورة عامة في إنها تعتبر «الكائن الاسمي» هو «الوجود» وفوق «الوجود» وأول ما صنعه خلق نظام الكون واطهاره إلى الوجود وأول كائن في النظام المخلوق، كان العقل الأول، أو العقل الكوني الذي يقرن بكلمة الله، وهي الحقيقة التي تحجب الروحانية العليا، التي لها حدها، العقل الثاني، ومن العقل الثاني ينبثق العقل الثالث، الذي تقرنه الاسماعيلية بأدم الروحاني، والعقل الثالث هو المثال الملائكي للإنسانية أنه الإمام السماوي الذي هو النموذج الأصلي لأدم الأرضي ولجميع الناس، وليس حياة الإنسان، والدور الذي يمثل على مسرح الحياة سوى انعكاس لهذه الحقيقة السماوية.

والعقل الثالث، أي أدم الروحاني، حاول الوصول إلى الكائن الأسمى دون أن يأخذ في الاعتبار التدرج في العوالم الملائكية فوقه، فمن وجهة نظر ميتافيزيقية ارتكب أدم خطيئة كان سببها وقوعه في بحران النسيان والذهول.. وعندما عاد إليه وعيه أدرك أن الله عاقبه واسقطه إلى منزلة العقل العاشر. وهكذا أبعد عن منشأ مسافة «سبعة عوالم روحية» نتيجة نسيانه وذهوله. هذه العوالم السبعة النماذج لهذا العالم. ولهذا السبب فإن مداد العدد سبعة يتحكم في كل شيء. وقد خلق هذا العالم لكي يتمكن الإنسان فيه من استعادة حالته المفقودة، ولكي ينجو من «شبح» نفسه. ولأن هذا العالم خلق على المثال السماوي، فإنه يتألف من سبع سموات، وسبع أراض، وسبع دوائر نبوية، وسبعة أئمة.

أما «الزمن» الذي يعيش الإنسان فيه فهو نفسه «الابدية المتأخرة» وهو صورة للتأخر الذي سببه سقوط الإنسان من منزلة العقل الثالث إلى العاشر. أن للزمن، بالنسبة إلى تاريخ نشأة الإنسان الروحية، أهمية تعلو على التاريخ، لأنه قائم على زهول الإنسان ونسيانه الذي بدوره سبب سقوط الإنسان إلى عالم الزمن، والفناء والموت، وإن انفصال الإنسان عن الله سببه غفلة الإنسان وذهوله، وهذه نظرية جوهرية في الإسلام عامة وفي الصوفية خاصة.

ومفهوم الاسماعيلية للتاريخ مفهوم دوري مجانس لمفهومها الميتافيزيقي للزمن، وعلى الرغم من أن لبعض مصادر الشيعة الاثني عشرية مفهوماً دورياً للزمن - ليس بمعنى تعاقب الحوادث المتكرر، بل بمعنى دورات تاريخية غير هذه الدورة الحالية - إلا أن هذا المفهوم ليس كمفهوم الاسماعيلية لهذا الأمر في شيء. فالمصنفات الاسماعيلية تتكلم عن دورة للدهر كبيرة، مدتها ٣٦٠ ألف سنة تشمل سبع دوائر من دوائر النبوة.

وكل دورة تبتدئ بظهور نبي له نائب أو إمام باطني يتحكم بالدائرة كلها.

وظهور النبي السابع يعني نهاية الدائرة، أما الانبياء والأئمة في الدائرة البشرية الحالية فهم:

آدم	شميت	نوح	سام
ابراهيم	اسماعيل	موسى	هارون
يسوع	سمعان	محمد	علي

والامام السابع الذي هو المهدي أو «إمام البعث» الذي لا يأتي بشريعة جديدة، وإنما يشرح المعنى الباطني لجميع دورات الوحي، ويمهد السبيل لمجيء الدورة الجديدة، وفضلاً عن هذا، فإن الدورات التاريخية تتغير من دورة التجلي إلى الغيبة، وذلك في الفترة التي يكون فيها الحق قد أعلن، وبين الفترة التي يكون فيها الحق خافياً غير ظاهر، وهذا التعاقب بين التجلي والغيبة يستمر حتى انتهاء الدورة الكبرى. عندها تأتي الساعة «قيامه القيامة» التي يعاد فيها الإنسان الأرضي إلى نموذج السماء الأول. وهكذا بواسطة الأنبياء والأئمة تتحقق غاية الخليفة، ويستعيد الإنسان حالته الأولى التي فقدها بسبب غفلته ونسيانه.

إذا أراد المرء أن يقارن بين الاثني عشرية والاسماعيلية يجد أولاً أن الطائفتين الشيعيتين تشتركان في العقائد الإسلامية العامة، كما انهما تشتركان في العقيدة الامامية الاساسية، وفي مفاهيم الظاهر والباطن وفي التأويل الذي يركز عليهما، وكلتا الطائفتين تعترف بالأئمة الستة الأول بكل ما في كلمة الاعتراف من معنى. أما في ما يتعلق بالخلاف بين الاثني عشرية والاسماعيلية فظاهر، إذ أن احدهما تعترف بظهور اثني عشر أماماً بينما الثانية لاتعترف إلا بظهور سبعة. فمثلاً الإمام الثامن، علي الرضا، الذي يحتل لدى الشيعة مقاماً رفيعاً بالنسبة للدور الذي لعبه، غير معترف به لدى الاسماعيلية. والإمام الثاني عشر لدى الشيعة الاثني عشرية، وهو الإمام المهدي، هو في الغيبة، على الرغم من أنه حي، بينما إمام الاسماعيلية، وعلى الأقل لدى فرع الاسماعيلية النزارية، حي أبداً وهو موجود على الأرض يعيش بين الناس، وفكرة انتظار الإمام لدى الاثني عشرية هو أمر على جانب عظيم من الأهمية الدينية النفسانية، لكن مثل هذه الفكرة لا وجود لها لدى الاسماعيلية.

مزارات البهرة

حين أقمت في مقاطعة كجرات الهندية اقتربت أكثر من الاسماعيلية وزرت بعض مزاراتهم المقدسة وغالبيتها قبور دعائهم المطلقين الذين اتخذوا من الهند وطناً بعد انتقال الدعوة الفاطمية الاسماعيلية من اليمن إلى الهند في سنة (٩٤٦ هـ - ١٥٦٤م)

ومن الثابت أن مزارات البهرة المقدسة هي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف والنجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكوفة العلوية المكرمة وعموم مزارات آل البيت عليهم السلام وتأتي بعدها من حيث الأهمية قبور (الدعاء المطلقين) ويوجد في اليمن منها ٢٦ منها ٢٥ مزار في حراز وهناك مزار سيدنا حاتم في الحطيب المبارك بالإضافة إلى مزار سيدنا أدريس في شبام، والبهرة في اليمن لاقوا ظملاً وعنفاً من بعض اتباع الامامة اليمنية وآخر ما سمعنا من الاضطهاد الذي وقع عليهم مقتل ٧٠ رجلاً من اتباع الداوودية بالسب بعد أن أجبروا بالتبري من الداعي طاهر سيف الدين.

أما مزارات البهرة الكبرى في كجرات فالموجود منها حالياً ٤ مزارات في اجين Ujjain، وواحد في مومباي Mombay، وهو مزار روضة طاهرة الذي يرقد فيه الداعي سيدنا طاهر سيف الدين والواقع في محلة البهرة «قرب محمد علي رود وسوق بندي بازار»^(١) و ٧ في سورت Surt، و ٩ في أحمد آباد Ahmed Abad، و ٤ في جام نكر Jamnagar، وواحد في ماندوي Mandwi. واللافت أن هناك أيضاً مزارات خاصة بالنساء فقد زرت مدينة Dnda بصحبة صديقي الشيخ حيدر علي وهي مدينة من مدن كجرات تبعد ٦٥ كيلو متر جنوب سورت ونزلنا في موضع جميل جداً قريب من ساحل البحر ويسمونه بمزار ماي صاحبه، أو مقام الأم الكريمة - E - Mazar (Maisaheba) وقد زرت في هذا المزار ثلاث قبور متقاربة تضللها قبة من الجص الأبيض، يعود أقدم القبور إلى سنة ٩٠٠ هـ أي إلى العهد الذي سبق هجرة الدعاة المطلقين من اليمن إلى الهند وهذا يدل على رسوخ التاريخ الاسماعيلي في الهند بقرون قبل مجيء الدعاة والقادة ولعل وجودهم في الهند يرتقي إلى القرون الهجرية الأولى حينما حكموا السند وكانت (المنصورة) حاضرتهم العلمية والسياسية ولما كان الشيء بالشيء يذكر فأنتني وجدت قرب المزار المذكور أنفاً قصراً اسمه الفيلا السيفي (saiffie villa) وكان سابقاً من قصور الداعي طاهر سيف الدين وقد أهداه إلى الزعيم الهندي المهاتما غاندي في ١٥ أبريل ١٩٣٠ إذ كان غاندي في ذلك الحين يقوم باستخراج الملح من ساحل البحر الموازي لقصر الداعي الفاطمي وكانت الملايين من الهند تعتكف هناك تضامناً مع غاندي، فاهتبلها الداعي الفاطمي فرحة لاثبات وطنيته واريحيته التي لا تقبل الشك واهدى القصر إلى غاندي، وهذا القصر اليوم أحد ممتلكات حكومة كجرات.

عائلة الداعي المطلق

للبهرة ائمة ودعاة، فأما الائمة فعدهم (٢١) أولهم الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، (المستشهد سنة ٥١هـ) حيث أنهم يعتبرونه الإمام الأول بينما يعتبرون الإمام علي بن أبي طالب الوصي وهي مرتبة تأتي بعد مرتبة النبي وقبل مرتبة الائمة، وآخر ائمتهم هو الإمام الطيب الذي اختار الستر سنة ٥٢٦هـ.

وحين صار الإمام في دور الستر أصبح جميع البهرة الاسماعيلية حكماً في مرحلة جديدة من العمل الروحي وهو ما يعرف بمرحلة أو عهد الدعاة المطلقين الفاطميين النابيين عن الائمة المستترين وهم ينوبون عن الائمة وأولهم سيدنا ذؤيب من موسى الوداعي المتوفى سنة ٥٤٦هـ وآخرهم سيدنا محمد برهان الدين الذي هو نجل الداعي السابق عليه سيدنا طاهر سيف الدين المتوفى سنة ١٣٦٥هـ والداعي المطلق يعين بالنص من الداعي المطلق السابق عليه، وقد جاء هذا الاختيار بالنص كما قلنا ولا يعني هذا أن تكون الدعوة المطلقة وراثية فالبهرة لا يعترفون بالوراثة في تسلسل دعائهم المطلقين ولكن الحق يقال أن (البهرة) مع تولي الداعي المطلق سيدنا طاهر

(١) قمت بوصفه وصفاً دقيقاً في مجلة الموسم، العددان (٢ - ٣) سنة ١٩٨٩. وقد زرتة آخر مرة في ١ تموز (يوليو) ٢٠٠٨م بصحبة مدير المشهد الشيخ عبد الله اسماعيل باران والا (باران قرية في راجستان) والشيخ قريش حسين راغب.

سيف الدين وتسلسله (٥١) وتولي ابنه بعده سيدنا محمد برهان الدين فقد طبعت الدعوة الفاطمية البهرية بطابع هذه الأسرة بما استطيع أن أوصفه بالعصر السيضي للدعوة البهرية فالداعي السابق وولده الداعي الحالي وكافة أولادهم وأحفادهم رجالاً ونساء قاموا بأدوار مؤثرة على مجتمع البهرة واستطاعوا أن يحافظوا على التراث الفاطمي الذي ورثوه عن الأجداد وأضافوا إليه الكثير من اللامسات الحضارية وعاشوا واستفادوا من التطورات العلمية والتكنولوجية وأسهموا في رفع اسمهم جماعة البهرة في الميزان التجاري المحلي والعالمي في نفس الوقت الذي ضمنوا فيه ولاء أبناء الجماعة لقيادتهم الروحية، وينطبق هذا الوصف على الجماعة الاسماعيلية الأغا خانية أيضاً.

إن جماعة البهرة التي تتزعمها الآن أسرة الداعي السابق سيد طاهر سيف الدين منذ قرن من الزمن مدينة فعلاً لهذه الأسرة، وأن كنت أود أن تتسع صدور أبنائها لأشراك كافة أبناء الشعب البهري في تولي بعض المناصب الروحية إذ لايجوز أن يتم الاقتصار في بعض المناصب الحساسة على أبناء الداعي أو أحفاده دون غيرهم لاسيما ممن يتمتعون بالكفاءة والاخلاص وهم كثيرون والحمد لله.

أن رموز (العهد السيضي) كما نقترح تسميته هما الداعيان طاهر سيف الدين ومحمد برهان ولكن من ورائهم عدد لا يستهان به من أبناء الأسرة الذين تحملوا المهام الروحية المقدسة ومنهم على سبيل المثال:

اخوة السلطان السابق طاهر سيف الدين، وفي مقدمتهم:

- ١- الدكتور يوسف نجم الدين رحمه الله، المدفون بجانب قبر الشهيد مالك الاشر بالقااهرة.
- ٢- خزيمة قطب الدين.
- ٣- حسين حسام الدين.
- ٤- قاسم حكيم الدين.
- ٥- شبير نور الدين.
- ٦- عباس فخر الدين.
- ٧- محمد الباقر جمال الدين.

ومنهم أبناء السلطان الحالي محمد برهان الدين وهم:

- ١- القائد جوهر عز الدين، وأولاده: ابراهيم، وعلي الاصغر، وطاهر والسيد ابراهيم وهذا الأخير هو الذي يتردد اليوم على جامع الكوفة بعد تعميره على يد البهرة.
- ٢- المفضل سيف الدين وأولاده: حسين، وجعفر الصادق، والأخير السيد جعفر الصادق، هو باعتقادي من أجل العلماء الذين انصرفوا للاهتمام بالتاريخ الفاطمي، وقد رأيت بعض آثاره المحفوظة في المكتبة السيفية ومنها: اقتباس الأنوار بذكر كرائم الآثار وفيه دراسة شاملة للجامع الاقمر والجامع الجيوش بالقااهرة، وكتابة الآخر الموسوم بـ (من أراد العلم فليأت

الباب) وفيه دراسة رائعة عن أبواب القاهرة الفاطمية.

٣- مالك الاشر شجاع الدين.

٤- حذيفة محي الدين وولده السيد تيوخوم

٥- ادريس بدر الدين

٦- قصي وجيه الدين

٧- عمار جمال الدين.

وهناك السيد ملحم بن يونس وعدد من الشباب البهري المتحمسين للدعوة الفاطمية.

الأمير القائد جوهر

وفي طليعة شخصيات البهرة اليوم بعد السلطان ولده الأمير القائد جوهر عز الدين، وله احترام كبير بين جميع أبناء الطائفة، وهو على رصيد ضخم من العلاقات الدولية والتجارية ولايهمه إلا رفعة الطائفة وتطورها، وقد التقيته في مدينة سورت في ليلة عيد ميلاده مساء يوم ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧ ووشحني يومها بالوشاح الفاطمي حبا وكرامة.

الجامعة السيفية

اسسها الداعي ٤٣ سيدنا عبد علي سيف الدين الملقب (بالمؤيد الأصغر) المتوفى سنة ١٢٣٢هـ وكان اسم الجامعة يومذاك «الدرس السيفي» وذلك بمدينة أحمد آباد وعلى عهد سيدنا طاهر سيف الدين سميت (بالجامعة السيفية) وجعلها اسماً على مسمى فهي جامعة بمعنى الكلمة وجعل مقرها في سورت بعد أن انتقلت إليها الدعوة الفاطمية وفي سورت اليوم ١٥ ألف من البهرة وعدد المسلمين في المدينة ٢٠٪ من أصل عدد السكان البالغ ١٢ مليون نسمة وفي الجامعة الآن ٤٠٠ طالب و ٢٥٠ طالبة و ١٥٠ استاذ (وهؤلاء الاساتذة مشغولون بأمور الدعوة بالإضافة إلى تفرغ بعضهم للتدريس)، وللجامعة فرع مهم جداً في كراتشي (بدولة باكستان) وفيها نحو ٣٠٠ طالب و ٢٠٠ طالبة.

وجنسيات الطلبة تعود للهند وأمريكا وأوروبا وباكستان وأفريقيا وفي الهند ٥ طلاب من الأصل اليمني بينما يوجد ٧٠ من الطلاب اليمنيين في فرع الجامعة بالباكستان وسبب كثرتهم بالباكستان لسهولة التأشيرة والاقامة هناك بينما يخضعون في الهند إلى التشديد في ذلك منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وهو أمر يتعلق بالطلبة من أصول عربية وله طبيعة قانونية لا علاقة له بأمور الدين أو الطوائف.

نفقات التعليم

جميع الطلبة والاساتذة ينفق عليهم من قبل السلطان، ولكن لأبد للطلاب أن يتحمل سنويا مبلغ ١٠ آلاف روبية هندية تدفعها أسرته مقدماً للجامعة ويكو المبلغ أمانة لدى إدارة الجامعة. تقسمه الجامعة كرواتب للطلاب، ويبلغ المرتب منه مبلغ ٣٢٠ روبية شهريا ويعطى للطلاب

كي يستفيد منه في نفقاته الخاصة.

سنوات الدراسة ودرجات التعليم

تبلغ عدد سنين الدراسة ١١ سنة يقضي الطالب الأربع سنين الأولى منها في مرحلة الثقافة العامة، وهذه أسماء الدرجات العلمية التي يحصل عليها الطالب، وهي تسع درجات:

١- مبتغي العلم (وهي لمن يكمل الأربع سنين الأولى من الدراسة).

٢- الفقيه: خريج السنة السابعة.

٣- الفقيه المتقن: خريج السنة التاسعة.

٤- الفقيه الجيد: خريج السنة الحادية عشرة.

٥- ذي علم.

٦- العليم الجيد.

٧- العليم الرشيد.

٨- العليم البارع.

٩- العليم الراسخ.

والمراتب المرقمة من (٥) إلى (٩) مراتب عالية للمتخرجين في دراسات الدعوة الفاطمية وهي مرتبطة بالسلطان مباشرة. والمتخرج من الجامعة ويكون محل ثقة السلطان يعين في بلده أو قريته فيقال له حينذاك (العامل).

يتعلم الطالب عدد كبير من العلوم في طليعتها سيرة الرسول (ص) وحياة الوصي (ع) وسيرة الأئمة والدعاة المطلقين والتفسير وأصول الدين عن أهل البيت عليهم السلام والكتب السماوية وتاريخ الأديان والأفكار الأيدلوجية الحديثة وفقه أهل البيت والمعول عليه هو كتاب دعائم التأويل، وهناك تاريخ التشريع وأصول الفقه وعلم القضاء وعلم التأويل والأدب الفاطمي والأدب العربية عامة والتجويد والخط العربي والفلسفة واللغات الانجليزية والأردوية والهندية، وعلم الاجتماع والجغرافية والتاريخ بالإضافة للعلوم العصرية الطبيعية والكيمياء والفيزياء والبيولوجيا وغيرها. ومن الكتب الخاصة بالدعوة يدرسون بالإضافة إلى تأويل الدعائم، كتاب رسائل اخوان الصفا، وكتاب الهمة، وتنبيه الغافلين، والمصابيح في الامامة. والرسالة الوضعية في معالم الدين بالإضافة إلى رسائل وخطب الدعاة المطلقين.

اللغات المستخدمة

يتم التدريس غالباً باللغة العربية باستخدام «لسان الدعوة» وهي اللغة الخاصة التي يتكلمها أبناء البهرة في كافة أنحاء العالم وهي لغة خليطة من المفردات الهندية والكجراتية والكجية وفيها مفردات من اللغات العربية والفارسية والانجليزية، وتتضمن مصطلحات لا يفهمها إلا أبناء الدعوة أنفسهم وتكتب لغتهم بالحروف العربية شأنها شأن اللغة الاوردوية.

هيئة التدريس

١- المعيد. ٢- المدرس. ٣- المذهب. ٤- الاستاذ.

دار المطالعة البرهانية

وهي داخل المكتبة السيفية الغنية بكثير من المصادر وبكافة اللغات وتجد فيها الطلاب والطالبات من جميع الصفوف عاكفون على المطالعة فيها والاستفادة منها ومديرها حالياً الشيخ شبير سواسرا، وقد تفضل فارانا مجموعة كبيرة من الكتب النادرة، كما اطلعنا على كثير من البحوث الفاطمية التي كتبها طلاب وباحثون في الجامعة السيفية.

مؤسسات أخرى

في الجامعة السيفية اليوم تقوم مؤسسات أخرى بمهام علمية وثقافية واجتماعية وأبرز تلك المؤسسات التي زرناها.

١- معاهد الزهراء للنشاطات السمعية والبصرية، وهناك قاعة عامة خاصة بالكومبيوتر لاستفادة سائر الطلبة.

٢- جمعية القرض الحسن.

٣- المؤسسة السيفية للمساعدات الاجتماعية وأكثر الأمور التي تتولاها هذه المؤسسة المساعدة في أمور الزواج.

٤- معهد القرآن الكريم: لقد زرت هذا المعهد العظيم وهو من أهم ما رأيت في الجامعة وفيه نحو مائة الطلبة أو يزيدون كلهم حافظ للقرآن الكريم ووجدناهم كخلايا النحل دائبون على مواصلة الحفظ والاتقان في التجويد ودروس التفسير، ولهم بناية على الطراز الفاطمي بجانب الجامعة السيفية، تجلت فيها، روائع الفن الفاطمي وفي وسطها حديقة صغيرة تبعث على السرور والانشراح ويتحلق حولها الطلبة وهم يتلون القرآن حفظاً وترتيلاً.

دار الضيافة البرهانية

حين قدمت إلى سورت في آخر مرة في نوفمبر ٢٠٠٧ استقبلني عند محطة القطار مجموعة من اساتذة وطلبة الجامعة السيفية اذكرك منهم الشيخ مصطفى والشيخ حيدر علي والشيخ منصور الحرازي وأقلوني في سيارة خاصة إلى بناء فخم في بيغم بوره في ناحية زامبا بازار Zampa Bazar يطلق عليه البهرة «مسكن الضيوف البرهاني» وهو مجهز بأخر وسائل الراحة لساكنيه، وقد افتتح لاستقبال الضيوف في ١٣ شوال المكرم ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٤، وقد اقامت فيه مدة بقائي في سورت، أما الطعام فكنا نتناوله مع سائر الاساتذة والطلبة داخل الجامعة السيفية، والبهرة طباقون مهرة وذواقون لأنفس أنواع الاطعمة الهندية ويتميزون بأنواع من الطعام والحلوى لا توجد إلا في موائدهم، ومن عاداتهم الجميلة أنهم يتحلقون حول الخوان دون تمييز والعادة أن تغسل الايدي قبل الشروع بالطعام حيث يؤتى لنا بالابريق والطاسة فوق صينية من الفضة وهي «السليجة» المعروفة عندنا في الفرات الأوسط فيصب على أيدينا الماء ثم نجلس

عند المائدة ويبدأ الجميع بالملح ويختمون به ويجري الأكل بهدوء وانتظام ودون ضجيج مع أن الآكلين معنا قد يفوق عددهم على المتئين نفر.

الميزات الأربع

- ١- البهرة مجتمع مغلق ثم تأسيسه واكتمل نظامه الديني والاجتماعي والسياسي واللغوي. دينياً: الداعي المطلق هو السلطان والرئيس الروحي ويعظمونه أشد التعظيم والتقدير، وهو لديهم ينوب عن الإمام المستتر (الغائب) وهو ينص على من يليه في هذا المنصب.
- ٢- اجتماعياً: للبهرة كيانهم الاجتماعي الخاص، محلاتهم الخاصة، وملابسهم «التوبي والكرتا والصاية» وعلاقاتهم، وتعاونهم التجاري والصناعي والحرفي فيما بينهم في أعلى مستويات الثقة والاطمئنان، يحرصون المرأة والطفل باهتمام ملفت، محافظون على هويتهم الاجتماعية مما يقلل فرض الاندماج والانفتاح مع الآخر، ولا اعرف إلى أي مدى سيبقون على هذه الحالة مع التطور المذهل الذي تشهده المجتمعات الإنسانية. لكنني أستطيع أن أقول بثقة أن التغيير آت لا محالة

- ٣- سياسياً: يتمسكون بفصل الدين عن الدولة ولايتدخلون في الأمور السياسية لافي الهند ولافي غيرها انطلاقاً من المبدأ الديني بانتظار المخلص المنتظر (ظهور الإمام المستتر). ولايعني هذا عدم اهتمامهم بالأمور السياسية على نحو الاجمال، كما أن للسلطان تأثير واعتبار فهو يتدخل في الازمات السياسية لفض النزاعات أو حل بعض المشكلات اذا استدعى ذلك كما حدث غير مرة من الصلح بين طرفي النزاع من المسلمين والهندوس، ويحتفظ السلطان بعلاقات ودية مع جميع حكام وزعماء الدول التي يقطنها أتباعه، ولايجيز لاتباعه هؤلاء الدخول في الاحزاب والمساهمة في الأنشطة السياسية.

- ٤- لغوياً: البهرة يتكلمون لغة خاصة بهم هي لغة الدعوة ولا أحد يعرفها غيرهم وبهذا يسهل التعامل فيما بينهم اثناء وجود الغرباء ان استدعت الضرورات.

اعتقادات وعادات البهرة

- الطبقة العلمية منهم والمتفقهين والتجار يحبون اللغة العربية حباً جما ويتعلمونها منذ صغرهم.
- يرجعون في الأمور الفقهية لكتب السلف الفاطمي ككتب القاضي النعمان وسواد فهم في ذلك كحال (الاخبارية عندنا) وفي الامور الفقهية المستحدثة يرجعون إلى السلطان مباشرة.
- لاتقام صلاة الجمعة بسبب كون الإمام مستتراً (كما هو حال من يتمسك بهذا الرأي من طائفتنا بحجة غياب الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه).
- يحافظون على جميع الصلوات والفروض الخمسة المقررة، ويجمعون عند الظهر والعصر. والمغرب والعشاء (كما هو الحال عندنا).
- جميع البهرة يتزوجون بامرأة واحدة، ولايجوزون نكاح المتعة ومع اعترافهم بصحته أصلاً فالرأي استقر لديهم بالنهي عنه مطلقاً.

- في رمضان يفطرون مع الأذان الشرعي، فلا يلتفتون لغياب ما يسمى لدينا بالحمرة المشرقية.
- يحيون ذكرى عاشوراء كل يوم ويلطمون ويندبون لكنهم يضربون ضرباً خفيفاً على صدورهم ولا يجوزون إيلام الجسد بالآلات الحادة، ويمسكون عن الطعام والشراب في اليوم العاشر من محرم تأسيساً بالإمام الحسين بن علي عليه السلام. وللحسين عليه السلام منزلة عظيمة جداً بينهم وشعار «يا حسين» يرتفع في كافة محلاتهم ومساجدهم وبيوتهم ولديهم من يذكر الحسين عليه السلام وقصة استشهادهِ على دوام الوقت.
- وقد شهدت كل صباح يبدأ فيه الاجتماع العظيم لطلبة الجامعة السيفية فنصلي الفجر معاً ثم تتلى بعض الأدعية والابتهالات وتنتهي بانشاد الشعر حول قضية كربلاء وتنتهي جلسة الصباح بالضرب على الصدور لدقائق قبل النشاط الدراسي العادي في كل يوم من بدأ أوقات الدوام الرسمي.
- «التقية ديني ودين آبائي» القول المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام وما زال ساري المفعول لديهم وتجده متجسداً في حركاتهم وسكناتهم. ولهذا تجدهم في ريب من كل غريب، وقد يغيرون قناعتهم بين أونة وأخرى.
- البهرة قوم أذكاء ملهمون تستهويهم الفنون والعمارة بشكل أخص. ورثوا تلك الخصلة الحميدة من أسلافهم الفاطميين، وهم اليوم واصلوا مشوارهم وساروا على خطاهم مساجدهم ومزاراتهم على أنفس ماتكون عليه العمارة والبنيان كما هو الحال في الهند والعراق والشام والقاهرة.
- أعيادهم هي أعياد المسلمين ويميزهم كما يميز الشيعة الامامية في الاحتفال بعيد الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة.
- يسبلون الأيدي في الصلاة كما هو الحال لدى الإمامية والاباضية والمالكية. وادانهم أذان الامامية باضافة الشهادة لأمير المؤمنين عليه السلام بالولاية والحيعة لخير العمل وتعقيبات الصلاة والأدعية المختصة بها غالباً من الصحيفة السجادية أو أدعية الأئمة مضاف إليها أدعية الدعاة المطلقين.
- لا يجوز لأحد الانتماء للطائفة البهريّة، فإذا صادف وحدث مثل ذلك فالسلطان هو الوحيد الذي ينقذ رأيه.
- يوصف البهري بالصدق والأمانة والاستقامة واتقان الصنعة، ولا يعتد بمن شذ عن ذلك، فلكل قاعدة شواذها.
- الأحوال الشخصية خاضعة للقانون الوضعي، وغالبية البهرة يفضلون الرجوع في ذلك لحكومتهم الروحية في (بدري محل) وفيها حل الخصومات والمنازعات ونادراً ما يذهب الخصوم إلى المحاكم الرسمية.
- مبنى (بدري محل) هو فاتيكان البهرة ومقر السلطنة عملياً وفيه الوزارة السيفية والدوائر الشرعية.

- يجاملون كافة أصحاب الأديان ولا يجوز لهم السلطان الدخول مع الغير بأية مناقشة أو محاوره حول الأمور الدينية والسياسية.
- لكل بهري سجل خاص، يضم كافة المعلومات عنه، ولا يولد مولود أو يختن أو يتزوج أو تحمل امرأة أو يتوفى شخص إلا ويمنح بذلك العلم في السجل الخاص بصاحب العلاقة، وتبعاً لذلك هناك مايزيد على المليون بطاقة (أشبهه بطاقة الأحوال المدنية) ممنوحة للمؤمنين البهرة فيها اسماءهم وصورهم ورقم سجلهم وهم في هذا الجانب من أرقى الطوائف الدينية تنظيماً.
- يمتازون بالتكامل الاجتماعي فلا يوجد بينهم فقير.
- الجميع ملزمون بأداء الأموال الشرعية الخمس والزكاة وغيرها إلى الداعي المطلق وهو الوحيد الذي له الحق في أن يتصرف بها كيفما يشاء وفق نظام خاص به فيه من المستشارين والمساعدين الماليين والاقتصاديين، لصرف الأموال من الحقوق الشرعية في الوجوه المناسبة لها.
- يعتقدون بالشفاة والتبرك بالنبي والائمة صلوات الله عليهم ويقدمون من أجلهم النذورات والتبرعات ولهم في ذلك عقيدة راسخة.
- يؤمنون بأن الإمام القائم (المهدي عندنا) ويعتقدون بأنه يولد ويظهر من دور الستر والخفاء في آخر الزمان، والداعي المطلق (محمد برهان الدين حالياً) ينوب عنه بكافة أموره.
- ونحن الامامية نعتقد بالإمام المهدي مولود وهي حي غائب عن الانظار وأن الفقهاء المراجع المعترف لهم بالاهلية الشرعية والاعلمية انما هم نواب عنهم في تطبيق الأمور الروحية.
- البهري لايدخن ولايشرب الخمر ولا كافة المسكرات والمنشطات لأنها محرمة تحريماً كلياً.
- لايجوز لأحد الاطلاع على مآلديهم من كتب التراث الاسماعيلي إلا من رحم ربك.
- لاتربطهم بايران علاقة حيث أن الامام المعصوم الامام الثامن لدى الامامية الاثني عشر، الرضا من آل محمد عليه السلام، لايعترفون بامامته، ولكن قد يزورونه كونه من آل البيت عليهم السلام، وتربطهم بالشيعية العرب (أهل العراق خاصة) روابط وثيقة جداً حيث أن قدس مقدساتهم هناك فالمرحلة الأولى من الدعوة الفاطمية تتمثل بالنبي صلوات الله عليه وهو في الحجاز فمكة والمدينة قدس الاقداس، ويأتي بعدها العراق حيث المرحلة الثانية من مراحل الدعوة المتمثلة بالوصي علي عليه السلام، ثم المرحلة الثالثة المتمثلة بالائمة الفاطميين وهم في القاهرة، وفي المرحلة الرابعة والأخيرة، الدعاة المطلقون وقبورهم منتشرة بين اليمن والهند على ما فصلناه سابقاً.

في السلمية

حين تحولت إلى مدينة بنغلور Bangalore عاصمة ولاية كارناتكه Karnataka التي تعد أكبر الولايات الهندية في جنوب الهند وضمن هضبة الدكن، كنت أزور بين حين وآخر التجمعات الشيعية في كافة مدن وقرى تلك الهضبة الكبرى ومن ذلك ميسور Mysore وبيدر Bidar

وكبيره Gulbarga وهاسن Hassan وشيموكة shimoga وصولاً إلى مدن وقرى ولاية Tamil Nado والمليبار (ولاية كيرالا) ومايتصل بهما من الأفضية والنواحي، وفي كتابي أعلام الهند المجلد الأول ص ٣٠٣ - ٣٧٢ وصف لبعض زياراتي إلى الأمكنة المذكورة.

ولم أكن أقتصر في تلك الزيارات على معرفة أحوال الإمامية فقد كنت أسأل عن أحوال الاسماعيلية أيضاً مع أن نسبتهم أقل بكثير من الإمامية، وامكنني أن اتعرف على بعض العوائل العريقة جداً ولدى بعضها كتب وأوراق عتيقة جداً ومنها ما له صلة بأئمة الموت وهؤلاء نزاريون لا تربطهم صلة بالأغا خانية، والأجيال الحديثة منهم تحولوا إلى السنية أو الشيعية بحسب البيئة والوضع الاجتماعي والتكتم السلبي الشديد الذي يأباه بعض الأبناء، وقد تبادلت المعلومات في حينها حول بعض هذه العوائل الاسماعيلية مع صديقي الدكتور عارف تامر المقيم بـ (سلمية) قرب (حمه) من بلاد الشام. وقد حفزتني رسائله وشوقي لرؤية تلك الحاضرة العريقة إلى زيارة الشام ثم قصدت (السلمية) العظيمة وتعرفت عن قرب على أفراد من فرعي الاسماعيلية: القاسمية، والمؤمنية، وأنست بلقيا عارف تامر (وهو من المؤمنية) وأنس هو الآخر بلقياي وكاد يطير من الضحك لما توصلت إليه من معلومات ربما كانت غير معروفة لديه وقد توصلنا فيما بعد إلى كيفية اختفاء الفرع الامامي الاسماعيلي الطاهري من بقايا أئمة الموت، وكان يعول علي في التوصل كلياً إلى حل اللغز الذي استمر قرنين من الزمان.

مزارات مصياف وجبل القاهر

لم أبارح السلمية حتى زرت بعض المشاهد والمزارات في تلك البقاع الشريفة، فمما زرت به مصياف مشاهد الدوات التالية:

● قبر الإمام النزازي سنان راشد الدين محمد بن الحسن المولود سنة ٥٣٠هـ - ١١٣٧م والمتوفى سنة ٥٨٨هـ - ٩١٣م ويسمونه الحكيم العراقي، وما خاب ظنهم في ذلك إذ أن أصل أسرته من مدينة البصرة الفيحاء.

● قبر الأمير مزيد بن علي بن دبيس المزيدي الأسدي (٥٣٣ - ٥٩٢هـ - ١١٤٠ - ١١٩٩م) الذي قدم إلى مصياف سنة ٥٦٣هـ - ١١٧٠م وعاش فيها تحت رعاية الإمام راشد الدين بعد أن اشتد الخناق على الدولة المزيديّة الأسديّة الشيعية في الحلة (بابل) من قبل السلاجقة فلجأ إلى ديار الاسماعيلية كان شاعراً مجيداً وفي ذلك يقول :

وسرت إلى (مصياف) سعيًا كما سعى
إلى أن حطت اليوم رحلي مسلماً

إلى البيت قوم من قريش وجرهم
إليك وها أنت المحكم فاحكم

● قبر الشيخ حسن نجا

وعلى مسافة ٤٠٠ متر من المشاهد السابقة ضمن الجبل المطل على مصياف زرنا القبور

التالية:

الإمام الحسين بن الإمام أحمد الوفي، سليمان النهرواني، علي الريحاني، علي بن المعلل، الحسين بن أحمد، وفي باب القبلة من مصياف زنا قبر غسان بن اسماعيل.

قلعة الموت

ثم رأيت أن الصورة لاتكتمل دون زيارة قلاع الاسماعيلية في إيران وقد وفقت إلى ذلك فذهبت إلى طهران ومنها إلى مدينة قزوین ومنها يمت شطر بلاد الموت التاريخية قاطعاً سلسلة طويلة من الجبال السماء شمال الهضبة الإيرانية التي أوصلتني إلى وادي الطالقان وأعلى شهرشاه رود ثم إلى وادي نهر الموت الذي يقع بين كتلة جبال هودغان وكتلة جبال البورز التي تبلغ ارتفاعها ١١.٠٠٠ قدم وهذه الجبال تمتد محاذية لسواحل بحر قزوین الجنوبية.

وما أن وقعت عيني على قلعة الموت حتى أخذتني الرهبة والاعجاب وسرحت في الخيال بعيداً متذكراً ماقرأت وسمعت عن (جنة الحشاشين المصطنعة)، ولكن الذي أخذ بمجامع لبي وهيب بي الشوق والتذكر منظر تلك الصخرة الهائلة التي أخذت لها وضعاً فريداً وملفتاً للأنظار حيث ترتفع بشكل عمودي بزاوية انحدار ٣٠ درجة شرقاً و ٦٠ درجة غرباً، وتبدو للباصرين كأنها نيزك ضخمة استراح بأحكام وسط وادي الموت.

وأول ما فكرت به بعد ذلك هو الصعود إلى أعلى القلعة واستكشاف أحوالها لأنني لا أريد أن أكون كعطاء الله الجويني المؤرخ الشامات المائل لسيد نعمته هولأكو، بل هو الذي أشار على هولأكو بحرق المكتبة الإسلامية الاسماعيلية في هذه القلعة المباركة، ولم يكلف نفسه عناء الصعود إليها^(١). وحال الجويني كحال حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستعديهم على أهله هو الآخر.

وفي حدود الساعة التي قضيناها في الصعود، كنا نقف خلالها للتأمل وهكذا صرنا في أعلى القمة الفسيحة التي كانت تتسع زمن الحسن بن الصباح لحدود ٢٠٠ من اتباعه - فيما قيل - وبالرغم من الضباب المنتشر فقد صرنا نرى تلك الانحاء المكشوفة المطلة على الجبال المحيطة

(١) يطلق الجويني هذا وسواه من طائفتي زمانهم كلمة (الملاحدة) أو (ديار الملاحدة) أو (إمام الملاحدة) على الاسماعيلية. فهل كان ولي نعمته هولأكو التتري السفاح ابن الضربة إلا شيخ شيوخ الملاحدة وأميرهم، أنها الحقيقة المرة أن يكون علماء الاسلام من أمثال الجويني، يستعينون بالأجنبي الدخيل الفاتح المستهتر، بينما كان الفاطميون يناضلون لحماية البلاد ورد الأفرنج والروم عنها ولقد كان من أفجع ما عاناه الفاطميون أن غيرهم كان يستعين عليهم بالأجنبي الفاتح فبينما كان أمير حلب يستنجد بباسيل الثاني امبراطور الروم سنة ٣٨١ ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على نهر العاصي فتهمزهم. وكذلك يثير عليهم (علاقة) ثورة في صور ثم تكون فاتحة أعماله الاستنجد بالروم وبالإمبراطور بباسيل الثاني. ولكن الحركة تنتهي بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علاقة.

بل أن فقهاء من الفقهاء وحفاظاً من الحفاظ يبدو أنه من الرملة نفسها هو الحافظ محمد بن أحمد بن سهل الرملي يقول: «لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم ورميت الفاطميين بتسعة»، وقد عمل أميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى فالقى بسهامه العشرة كلهم على الفاطميين ولم يلق ولا بسهم واحد على الروم بل أضاف سهامه إلى سهامهم فسلطوها مجتمعة على (إفامية) فغنموا منها مغنم كثيرة واستولوا على قلعتها واسروا كثيراً من أهلها.

بنا وهي في منظر يخلب الأبواب حيث تبلغ الجبال حوالي ذروة ارتفاعها، فثمة تحت مسليمان ١٥٨٠٠ قدم ومنه ينبع الموت وهناك دوماوند ١٨٥٠٠ قدم وقد مكثنا فوق القمة قرابة ثلاث ساعات نتفحص مايبقي فيها من آثار وجدران وحجارة قديمة، ومن معالمها الباقية رأينا حفرة كبيرة أحدثها الآثاريون الفرس في وسطها تظهر مسجداً ومحراباً قديماً، وقد أخبرنا أنهم وجدوا أثناء الحفر في هذا الموضع وغيره من القلعة منات من الملتقطات الأثرية، ومن بينها مسكوكات تعود إلى العهد السلجوقي، بالإضافة إلى قطع زجاجية وفخارية مختلفة الأحجام، وهناك أيضاً آثار آقنية وخزانات مياه، ومن الملاحظ أن هيئة الكشف الأثري الإيرانية قد استنفذت جهودها في القلعة، فهم الآن بصدد بناء بعض المعالم القديمة التي اكتشفوها في القلعة، وربما تكون هذه الرغبة غير جادة تماماً فالأسس التي شيدوها حديثاً لم تتم كما ينبغي، وتبدو الآن كأنها متروكة أو مهملة أو أن العمل من أجل ذلك يمضي بطيئاً متمهلاً واثمناً أن تعالج هذه المسألة على وجه يعيد الحياة إلى بنیان وعمارة القلعة لتكون موئلاً للسياح الراغبين بزيارتها.

وبعدها نزلنا إلى الوادي الافيج ثم مشينا إلى استراحة على طرفه، وبعد الصلاة وتناول بعض المربطات تعرفنا على بعض سكان المنطقة وهم قليلون لا يكادوا يرون في حوالي القلعة ولادروبها الملتفة بين الجبال، ثم مررنا بعدد من القرى هناك وهي: «خشكه جال، وتوان، وكازرخان، ولامان، وشترخان» وبعد هذه القرية الأخيرة شترخان برزت لنا قرية اسمها دكين، وهي القرية الوحيدة التي تضم عوائل اسماعيلية يطلق عليهم محلياً تسمية «كله بوز».

في أفريقية

الدعوة لآل البيت عليهم السلام وصلت إلى أفريقية منذ القرن الأول الهجري بواسطة الشيعة الامامية والادارسة الدعوة الفاطمية وقد سادت هناك وأسست الدول والامارات التي سادت لقرون، ولما بادت سيادتها بقي أثرها في عموم المجتمع الافريقي ولا أدل على ذلك من التراث المكتوب والشفوي المفعم بحب آل البيت ورموز العقيدة الإسلامية الشيعية.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هاجرت جماعات قليلة من الاسماعيلية والشيعة الامامية وبعض الشيعة الزيدية إلى غرب افريقية، وشرقها وأسست هناك مجتمعاتها الصغيرة، والاسماعيلية بفرعها الأغاخانية والبهرة لها وجود تجاري وصناعي في غالبية أفريقية المعاصرة والجميع يرتبطون روحياً بمراجعهم الأساسية اعني الأغاخان ومؤسسته، وسلطان البهرة و منظماته وبما أن الدعوة الفاطمية اليوم قد انغلقت على اتباعها ولم تعد مذهباً تبشيراً فقد انكفأت مجموعاتا على أنفسها واقتصرت نشاطها الديني على نفس الطقوس والعبادات التي تمارس في بلادهم الأصلية التي انطلقوا منها إلى افريقية وغالبيتهم من أصول هندية - باكستانية، وهم جميعاً منصرفون لاعمالهم اليومية وتنمية تجارتهم والحفاظ على وضعهم العام ويرتبطون بالحكومات بصلة جيدة ومعروف

عنهم المهارة والخبرة في الأعمال والتعاون مع بعضهم البعض في الأقوال والأفعال وفي كل الأحوال وإلى جانبهم نمت مجموعات الاثنى عشرية بفعل مايسمونه (التبليغ) وهو التبشير بمذهب آل البيت عليه السلام وقد كسبوا ومازالوا يكسبون مئات الآلاف من الافارقة ويضمونهم إلى جماعاتهم ولكن جميع من يفعل ذلك أشخاص نذروا أنفسهم لهذه المهمة، والمرجعيات الشيعية العليا غير أبهة بهم وقد لايعنيهم من تحركهم إلا كسب المقلدين لاسباب معلومة. وقد يمتنون على هؤلاء المبلغين المتطوعين منية كبيرة لو اعطوهم إجازة أو وكالة، مع أنها قد لاتنفع في تلك الانحاء، ومن جانب آخر لا يوجد تعاون بين هؤلاء المبلغين أنفسهم، وإذا اجتمع المعمم مع آخر في قرية أو بلد واحد فانهما يتنافران ويتباغضان ويتقاتلان، ولا أقول الجميع على هذه الصفة لكن مرد ذلك قوى المرجعية الضاربة الاطناب، وقد يأتي (مبلغ) من عوام الناس لكنه يرتدي الزي الديني ويتخذلق إلى متولي الطائفة هناك فيكسب ودهم ويعيش بعيش رغيد ولاهم له إلا رضى بعض الاثرياء واطاعتهم لإطاعة العمياء وقد يغتر بوجوده بعض (المراجع) أو الذين يرون في أنفسهم ذلك، فيزودونه بالوكالة ويجعلون ثقتهم به لكي يرسل اليهم الاموال، وقد تجد إلى جانبه عالم كامل لكنه خامل يجهر بالحق فلا يلتفت إليه (كأنه مصحف في بيت زنديق) وهذا الابتلاء مرده انعدام النظام لدى غالبية المتصدين للمرجعية فلو صلحوا لاصلحوا ولو استقاموا لحسنت حال الامة والله المستعان. وارجع الى ماسلف من كلام وأقول: إن الاسماعيلية الذين التقيتهم في سفراتي الافريقية وكلهم محافظون على شؤون الدعوة، ومرجعياتهم الدينية تجد فيهم خزاناً من الاموال وموردا ممتازا لاصلاح الاحوال على كل حال، وما وجدت لديهم شيئا متميزا لكي اذكره فلا عندهم مزايا تختلف عن الآخرين ولا مزارات تزار غير جمعيات هي اشبه بالنوادي يكون في اللقاء في المناسبات المحدودة، وقد وفقنا لاقامة مؤتمر للدعوة الفاطمية الذي قام به بالاضافة إلى معهدنا «المعهد الفاطمي للدراسات الاسلامية، التابع لأكاديمية الكوفة، المؤسسة العليا للسادة الاشراف، واتحاد المؤرخين العرب، وكان ذلك في مدينة انتيبي بدولة أوغندا في نوفمبر سنة ٢٠٠٧.

افريقية راعية الفواطم

وقد القيت في هذا المؤتمر كلمة تطرقت فيها إلى عقيدة الافارقة الراسخة في محبة آل البيت النبوي الشريف والروابط الحميمة ووشائج النسب والحسب التي كان لها أطياب الأثر في الاستمرار هذه العلاقات المباركة وفيما يلي تلخيص لأهم مافي ورد في الكلمة.

مما قلت: بعد حمد الله وثنائه...

(افريقية) هي من احتضنت آل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، بعد أن عاث الظالمون في ديارهم وتبعوا ذرايهم قتلا وتشريدا فكانت (افريقية) هي المأوى الكريم الذي رد سهام المنافقين إلى نحورهم، فمنذ القرن الأول الهجري ومايليه كانت علاقة آل البيت بافريقية والافارقة هي الاقرب، وكانت وشائج الحب والمودة هي الاسمى فكما كانت سيدتنا ماري القبطية

زوج الرسول الكريم (ص) من افريقية، فقد كانت السيدة فضة النوبية هي أقرب النساء إلى سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بعد النبي وعلي والحسين صلوات الله عليهم، وفضة الافريقية هذه هي التي كانت لا تتحدث إلا بالقرآن الكريم وهي التي كانت مع علي وفاطمة والحسين عليهم السلام وصامت معهم ليتحقق النذر الذي نذره علي وفاطمة عليه السلام من أجل شفاء الحسين بحسب ما نص عليه البيضاوي الشافعي ونزلت حينها الآيات الكريمة التي مطلعها «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً إنما نطعمهم لوجه الله...».

ومن افريقية كان البطل الشهيد جون بن حوى مولى الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري وجون هذا هو الذي استشهد مع الإمام الحسين بن علي عليه السلام في واقعة كربلاء سنة ٦١هـ وهو القائل آنذاك مرتجزاً أمام سيد آل البيت وسبط النبي (ع):

كيف يرى الكفار ضرب الأسود بالسيف ضرباً عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليد أرجو به الجنة يوم المورد

ومن افريقية كان السيدة حبيبة زوجة الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط عليه السلام جد السادة الاشراف الحسين، ومن افريقية السيدة كنزة البربرية زوجة الإمام ادريس الأول أول من دخل المغرب من آل البيت فأسس فيها دولة تحكم على سنة الله ورسوله وهي أم ادريس الثاني مؤسس مدينة (فاس).

وهل تعلمون أيها الأخوة أن نصف عدد أئمتنا المعصومين الاطهار الاثني عشر، هم ينتسبون لافريقية من جهة الام وهنا اذكر بعض الحقائق:

١- فحميدة الامازيغية البربرية هي أم الإمام موسى الكاظم عليه السلام وزوجة الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذين ينتسب لهم الشيعة فيقال لهم الجعفرية وفي حميدة البربرية يقول الإمام جعفر: «حميدة مصفاة من الادناس كسبيكة الذهب».

٢- السيدة نجمة وقيل أروى وهي من فضليات النسوة الافريقيات وهي أم الإمام علي الرضا عليه السلام الإمام الهمام السلطان ابي الحسن الذي أصبح ولياً للعهد في خلافة المأمون العباسي، وضريحه الآن في مدينة مشهد (خراسان) عليه السلام.

٣- سبيكة النوبية الافريقية زوجة الإمام الرضا عليه السلام وأم الإمام محمد الجواد والمدفون مع جده الإمام موسى في المشهد الكاظمي ببغداد.

٤- السيدة سمائه الافريقية أم الإمام علي الهادي صاحب المرقد العظيم في سامراء الذي هدمه الارهابيون أخيراً والإمام الهادي عليه السلام كانت بشرته سوداء حتى أن الطاغية المتوكل الذي كان يكره آل البيت ويبغضهم كان هذا يسمى الإمام الجواد تعصباً وعنصرية بالإمام الأسود حيث أن لونه أشبه بالافارقة.

٥- السيدة حديث أو حديثة الافريقية وقيل اسمها شكل وهي أم الإمام الحسن العسكري وجدة الإمام المهدي.

٦- السيدة نرجس وقيل اسمها سوسن وهي أفريقية أم الإمام المهدي المنتظر صاحب الزمان، وفي الرواية «أن صاحب هذا الأمر فيه شبه من يوسف يصلح الله عزوجل له أمره في ليلة واحدة». وهناك عدد من أصحاب الإمام المهدي المنتظر الذي سيظهرون معه وهم من أفريقية أيضاً. وفي القرن الثالث ثار الفاطميون سنة ٢٩٠هـ تيمناً بالرقم الفاطمي ٢٩٠ للاسم الرمزي (فاطر) الذي هو اسم الزهراء عليها السلام، والمطابق لاسم (مريم) عليها السلام والذي يبلغ أيضاً ٢٩٠ بحسب حساب الجمل المعمول فيه منذ عهد الحضارات الأولى، ومن هنا كانت مريم العذراء أم سيدنا المسيح عليه السلام سيدة نساء عالمها وكانت فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وهذا هو مورد تسامح الفاطميين إزاء مواطنيهم من اتباع الديانات الأخرى لكنهم فضلوا أن تكون هذه الأرض الطيبة (أفريقية) هي نقطة لانطلاق فاجتمعت لديهم قبائل الطوارق والبربر وطوائف الكتامية والباطلية والمصامدة والجوزرية وزويله ونفزه وصنهاجة وأوربه ومغيلة وزناته وزواعه وزواوه وغيرهم من المسلمين المخلصين وبفضل هؤلاء امتد الفاطميون من جنوب أفريقية حتى حدود المحيط الأطلسي، ومن الأفريقيين استمد الفاطميون قوتهم الحربية لكنهم لم يكرهوا أحداً على التشيع ولم يغروه بالمال والمناصب ولم يؤلفوا الهيئات للدعاية بل تركوا للناس يختارون لأنفسهم ما يشاؤون ويعتقدون ما يريدون حيث لا اكراه في الدين على عكس العباسيين والامويين والايوبيين وهكذا كان شأن سلفهم الإمام إدريس عندما احتضنه البربر في ويلي فبالرغم من أن المولى إدريس كان من آل البيت عليه السلام إلا أنه لم يكن يدعو للمذهب الشيعي، وكان يتعاطف مع الإمام مالك رضي الله عنه الذي أفتى عند قيام ثورة الإمام محمد المعروف بالنفس الزكية، بأنبيعة الاكراه ليست ملزمة، مشيراً بذلك إلىبيعة أبي جعفر المنصور.

ولأجل هذا رحب المصريون بالفاطميين وتركوا الاخشيديين والعباسيين، وإذا كان الطغاة قد قضوا على الدولة الفاطمية ظاهراً فهل استطاعوا أن يقضوا على حضارتها وتراثها ومجدها وعماراتها ومساجدها، كلا ثم كلا هاهي مصر وشمال أفريقيا تذكر تلك الايام الجميلة بكل خير وتقدير وهاهو التراث الشفهي للأفريقيين ملئٌ بذكرى آل البيت وقصص استشهادهم ومآثرهم ومكارمهم.

وهذا ما يتضايق منه دعاة الفتنة من التكفيريين المارقين الذي يعبثون بديننا ويضرقوننا شيعاً وجماعات.

والحمد لله أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً.